٣ ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الراوى :

نظرتُ إليها ونظرتْ . أما هى ، فرنتْ إلىّ فى سكون ، وكانت نظرتها معاتَبةً طويلة فيها التملّقُ والتوجّع ، وفيها الانكسارُ والفُتور ، وفيها الاسترخاءُ والدلال

وبينا كان طَرْفُها ساجياً فاتراً كأنه ينظرُ أحلامَه ، إذْ حدَّدته إلىّ فجأةً ونظرتْ نظرةَ مدهوش ، فبدتْ عيناها فزعتين ولكن فى وجهٍ مطمئنّ

ثم لم تكدْ تفعل حتى ضيّقتْ أجفانها وحدّقت النظرَ متلألئاً بمعانيه ، فبدت عيناها ضاحكتين ولكن فى وجهٍ متألم

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينيها معاً ، وأتتْ بذلك أجملَ أساليب المرأةِ الجميلة المحبوبة فى اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكَسْر حُجته فى كبريائه ، وانتزاع الفكرة المستقلّةِ من نفسه

وأما أنا ؛ فكانَ نظرى إليها ساكناً متألماً يُقِرُّ أنه عجز عن جواب عينيها ، وسيبقى عاجزاً عن جواب عينيها . . . .

إن وجهها هو الابتسامُ ورُوحُ الابتسام ، وجسمها هو الاغراءُ وروحُ الاغراء ، وفنها هو الفتنةُ ورُوحُ الفتنة ، وهى بهذا كلّه ، هى الحبُّ وروحُ الحب . غير أن فهمها على حقيقتها فى الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنها رذيلةً فى جمالها ، وهى بهذا كله ، هى الشقاءُ وروحُ الشقاء

* * *

أمّا إنى أحبُّ فنَعمْ ونِعِمّا ، بل أراه حباً قالقاً كَبِدى ، وليس يخلو فؤادى أبداً من سوالف حُبٍ مضى ؛ وأما إنى أستَرْذِلُ فى الحب وأمتهن فضيلتى وأنزلُ بها – فلا وأبدا

إن ذلك الحب هو عنـدى عملٌ فنيٌّ من أعمال النفس ، ولكن الفضيلةَ هى النفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ فى زمنى ، أما الفضيلةُ فهى زمني كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوة من جاذبيـة الأرض فى مدتها القصيرة ، ولكن الفضيلةَ جاذبيةُ السماء فى خلودها الأبدى

على أنه لا مُتَنافرةَ بين الحب والفضيلة فى رأيى ، فان أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا فى النفس الفاضلة المتورعة عن مُقَارَفَةِ الاثم . وههنا يتحول الحبُّ إلى ملَكةٍ سامية فى إدراك معانى الجمال ، فيكون الوجهُ المعشوقُ مصدرَ وحى للنفس العاشقة . وبهـذا الوحى والاستمداد منه ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفع بالآدميّة إلى الملائكية[1] ليتلقى النورَ منها فناً بعد فن ، والفرح معنى بعد معنى ، والحزن السماوىَّ فضيلةً بعد فضيلة

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيّةٌ لاتساع بعض العقول المهيّأة للالهام كى تُحيط بأفراح الحياة وأحزانها ، فتُبدعَ للدنيا صورةً من صور التعبير الجميلة التى تُثير أشواق النفس . كأن كلَّ محب وحبيبته من هؤلاء الملهمين ، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء ، فى حالةٍ جديدة من معنى ترك الجنة ، لايجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضي والحزن السماوى

والخطَرُ فى الحب ألا يكونَ فيـه خطر . . . . فهو حينئذ نداءُ الجنس ، لا يكون إلا دنيئاً ساقطاً مبذولاً فلا قيمةَ له ولا وحى فيه ، إذ يكون احتيالاً من عمل الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبَها النورانىَّ من شوق الروح لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتصل بينهما خلعت الغريزةُ هـذا الثوب واستعلنتْ أنها الغريزةُ فانحصر الحبُّ فى حيوانيته وبطلت أشواقه الخياليةُ أجمع

* * *

قال الراوى : وعرفت الحسناءُ هذا كله من عرضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرها ، فقالت للأستاذ (ح) : أما أن يكون مع أثر الشعر والفكر فى الجمال ودعوى الحب أثرُ الزهد فى الجسم الجميل وادّعاء الفضيلة — فانّ بعيداً أن يجتمعا

قال (ح) : وأين تُبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إنى لأعرف من هو أعجبُ من هذا

قالت : وماذا بقى من العجب فتعرفَه ؟

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة فى علم الصرف ونرى أن مخالفته هى القاعدة فى هذه النقطة

قال : أعرف رجلاً متزوجاً أحبّ أشدّ الحب وأمضّه حتى استهام وتدلّه ، فكان مع هذا لا يكتب رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذنَ فيها زوجتَه كيلا يعتدىَ على شيء من حقها . وزوجته كانت أعرفَ بقلبه وبحب هـذا القلب ، وهى كانت أعلمَ أن حبّه وسُلوانَه إنما هما طريقتان فى الأخذ والترك بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها

فتنهّدتْ وقالت : يا عجباً ! وفى الدنيا مثلُ هـذا الزوج الطاهر ، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجة الكريمة ؟

ثم إنها وَجَمَتْ هُنيهةً تجتمع فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استَدْمعتْ ، ثم أرسلتْ عينيها تبكى . فبدَرْتُ أنا أرفّه عنهـا حتى كفكفتْ من دمعها ، وكأن (ح) قد وخزَها فى قلبها وخزة أليمة بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجةَ الطاهرة ، ثم الطاهرةَ حتى فى وسوسة شيطان الغَيرة . ارتفع ثلاثَ مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات ، وكأنه بهذا لم يكلمها بل رسم لها صورتها فى عينيها المُخزى وقال لها : انظرى . . . . .

* * *

ويا ما كان أجملَها يترقرقُ الدمعُ فى عينيها الفاتنتين الكحيلتين فيبُثُّ منهما حزناً يخيّل لمن رآه ، أنه من أجلها سيُحزنُ الوجودَ كله

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هو فنُّ الحزن يضع مجالاً جديداً فى فن الحُسن . وأكاد أعجبُ كيف وجد الدمعُ مكاناً بين المعانى الضاحكة فى وجهها — لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء ليظهرَ على وجهها الفنَّ الآخر من جمال المعانى الباكية

* * *

وسألتها : ما الذى خامَرَ قلبَك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاكِ ، وأنت كما أرى يتألّقُ النورُ على جدران المكان الذى تحُلّين به ، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك ؟

تَشَكّكتْ لحظةً ثم قالت : أ بِكَ ما تقول أم أنت تتهكم بى ؟

قلت : كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق : الجمال ، والحب ، والألم الانسانى ؟

قالت : لا تثريبَ عليك [1] ، ولكن صوّر لى ببلاغتك كيف أحببتك وأنت غير متحبّب الى ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداورتُها عنك ، وكلما عزمت انحلّ عزمى ؟ فهذا مالا أكاد أعرف كيف وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرة من الماء الصافى العذب فضع عليها (المكرسكوب) يا سيدى وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالا . فما الذى خامر قلبك من كلام (ح) فبكيتِ له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةً من الماء بل تلك دمعةٌ من دموعى ، فضع عليها المكرسكوب يا سيدى

قال الراوى : وكانت حزينةً كأنها لم تمسك عن البكاء إلا بوجهها وبقيت روحُها تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدركَ لغلطته الأولى فقال : إنكِ الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ، فكل امرأة يحبها هى عروسُ قلمه ولها على هذا القلم حقُّ النفَقة . . . . . .

فضحكت نوعاً ظريفاً من الضحك الفاتر كأنما ابتكره ثغرها الجميلُ لساعة حزنها ، ونظرت الى . فقلت : إن كان الأمر من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلا شيء) جحا

فضحكت أظرفَ من قبل ، وخُيّل الىّ أن ثغرها انطبق بعد افترارِه على قُبلةٍ أفلتت منه فأمسكها من آخرها . . .

ثم قالت : ما هو (لا شيء) جحا ؟

قلت : زعموا أن جحا ذهب يحتطبُ ، وحمل فوق ما يُطيق ، فبَهَظَه الحِملُ وبلغ به المشقّة ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهَ فاستعان به ، فقال الرجل : كم تعطينى إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشيء) . قال : رضيت

ثم حمل الأبلهُ وانطلق معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطنى أجرى : قال جحا : لقد أخذته . واختلفا ، هذا يقول أعطنى ، وهذا يقول أخذتَ ؟ فلبّبَه الرجلُ [2] ومضى يرفعه إلى القاضى ، وكانت بالقاضى لُوثَةٌ وعلى وجهه رَوْأةُ الحُمق [3]

(١) أى لا عتب عليك (٢) أخذ بتلابيبه

(٣) اللوثة بضم اللام مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحمق ورَوأة الحمق علاماته وهى معروفة فى علم الفراسة

تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه . فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت فى الحبس أو تعطيه (اللاشىء) . . .

قال جحا فى نفسه : لقد احتجتُ لعقلى بين هذين الأبلهين ؛ ثم انه أدخل يده فى جيبه وأخرجها مُطبَقة ، وقال للرجل : تقدَّمْ وافتح يدى . فتقدم وفتحها . قال جحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشىء)

فقال له جحا : خذ (لا شيئك) وامض فقد برئت ذمتى

قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضى : مهْ ؟ أنت أقررتَ أنك رأيتَ فى يده (لا شىء) وهو أجرك ؛ فخذه ولا تطمع فى أزيدَ من حقك . . .

* * *

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكون عروسَ القلم ، فليُجرِّ علىَّ القلمُ نفقتى ، وليصوِّرْ لى كيف أحببتُ ، وكيف آمرتُ نفسى وجادلتُها ؟

قلت : لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه . بيد أننى لو صنفتُ روايةً يكون فيها هذا الموقفُ — لوضعتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تحدّث به نفسها

تقول : كيف كنتُ وكيف صرت . لقد رأيتُنى أعاشر مائةَ رجل فأخالطُهم فى شتى أحوالهم وأصرِّفهم فى هوايَ وكلهم يجهدُ جُهدَه فى استمالتى ، وكلهم أهلُ مودّة وبذْل ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ قد أنِقَ وتجمَّل وراع حسنُه كأنما هرب إلىَّ فى ثياب عرسه ليلةَ زفافه وترك من أجلى عروساً تبكى وتصيح بوَيلها . ثم أنا مع ذلك مُغْلقةُ القلب دونهم جميعاً أصدُّهم المودَّةَ والصُّحبةَ ، وأكذِبُهم الحبَّ والهوى ؛ فلستُ أحبهم إلا بما أنال منهم ولستُ أحبِّبُ اليهم إلا ما أنوِّلهم منى ، وهم بين عقلى وحيلتى رجالٌ لا عقول لهم ، وأنا بين أهوائهم وحماقاتهم امرأةٌ لا ذات لها

ثم أرى بغتةً رجلاً فرداً فلا أكاد أنظر اليه وينظر إلى حتى يضعَ فى قلبى مسئلةً تحتاج إلى الحلّ . . .

وأرتاعُ لذلك فأحاول تناسيَه والاغضاءَ عنه ، فتلجُّ المسئلةُ فى طلب حلها وتشغلُ خاطرى وتتمدَّد فى قلبى وهو هو المسئلة . . . فأفزع لذلك وأهتمُّ له وأجهدُ جهدى أن أكون مرة حازمةً بصيرةً كرجال المال فى حق الثروة عليهم ، ومرةً قاسيةً عنيدة كرجال الحرب فى واجبها عندهم ، ومرة خبيثة منكرة كرجال السياسة فى عملها بهم ؛ ولكنى أرى المسئلة تلين لى وتتشكل منى وتحتمل هذه الوجوهَ كلَّها لتبقى حيث هى فى قلبى فانه هو هو المسئلة . . .

وأغتمُّ لذلك غماً شديداً وأرانى سأسقط بعد سقوطى الأول وأقبحَ منه ، إذ الحياةُ عندنا قائمةٌ بالخداع وهذا يُفسده الاخلاص ؛ وبالمكر وهذا يعطِّله الوفاء ، وبالنسيان وهذا يبطله الحب . وإذ عواطفُنا كلها متجرِّدةٌ لغرض واحد هو كسبُ المال وجمعُه وادِّخارُه ، وفضيلتُنا عمليةٌ لا تتخيل ، حساسيَّة لا تختلُّ ، فيستوى عندنا الرجلُ بلغ جماله القمرَ فى سمائه ، والرجلُ بلغت دمامتُه الذبابَ فى أقذاره ؛ والحبُّ معنا هو كم فى كم ويبقى ماذا . . . أو كما يقول أهل السياسة هو « النقطة العملية فى المسئلة » . ولكن المسئلة التى فى قلبى لا ترى هذا حلاً لها ، لأنه هو هو المسئلة . . .

فيزيدُنى الكربُ ، ويشتد على البلاء وأحتالُ لقلبى ، وأدِرُّ فى خنقه وأذهبُ أقنعه أن الرجل إذا كان شريفاً لم يحب المرأةَ الساقطةَ إذ يُعاب بصحبتها والاختلاف إليها ، فاذا كان ساقطاً لم تحبه هى ، فانما هو صيدُها وفريستُها وموضعُ نقمتها من هذا الجنس ، وأسرفُ على قلبى فى اللامة والتمذيل فأقول له : ويحك يا قلبى ! إن المرأة منا إذا تفتَّح قلبها لحبيب تفتَّح كالجرح ليَنزِف دماءَه لا غير ، فيقتنع القلب ويُجمِعُ على أن ينسى وأن يرجعَ عن طلبه الحب ؛ وأرى المسئلة قد بطلت وكان بُطلانُها أحسنَ حلّ لها ، وأنامُ وادعةً مطمئنة ، فيأتى هو فى نومى ويدخل فى قلبى ويُعيد المسئلة إلى وضعها الأول فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسئلة . . . .

فأتناهى فى الخوف على نفسى من هذا الحب وأراه سجنَها وعقابَها ، وقهرَها وإذلالَها ، فأقول لها : ويلكِ يا نفسى ! إنما هلاكِ فى الحياة وسائلُ الفوز والغلَب ، فأنت بهذا عدوَّة مساةٌ فى غفلة الرجال صديقة ، وقد وُضعتِ فى موضع تعيشين فيه باهاناتٍ من الرجال يسمونها فى تذالهم بالحب . فأنت عدوَّةُ الرجال بمعنى من الدَّهاء والخبث ، وعدوَّةُ الزوجات بمعنى من

الحقد والضغينة ، وعدوّة البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة ، وكلُّ ما يستطيع الدهاءُ أن يعمله فهو الذى علىَّ أنا أن أعمله ، فماذا أصنع وأنا أحب ؟ وكيف أحبج وأنا أحب ؟ ولكن النفس تجيبنى على كل هذا بأن هذا كلّه بعيدٌ عن المسئلة مادام هو هو المسئلة . .

* * *

قال الراوى : وكانت كالذاهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ فى قلبى ؟ فهذا كله هو الذى حدث فى سبعة أيام

قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب . وهَبْكِ صنعت تلك الرواية ووضعتِ على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فماذا كنت تنطقها فى وصف حبها ، وما اجتذبها من رجل فاز بقلبها ولم يُداورْها ، بعد مائة رجلٍ كلُّهم داوَرَها ولم يفز منهم أحد . أتكون فى وجه هذا الرجل أنوار كتباشير الصبح تدلُّ على النهار الكامن فيه ؟

قالت هى : نعم نعم . بماذا كنت تنطقها ؟

قلت : كنت أضع فى لسانها هذا الكلامَ تجيبُ به عاذلةً تعذُلها :

تقول : لا أدرى كيف أحببته ، ولكنّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتنى اليه ، وجعلت الهواء فيما بينى وبينه مُفعَماً بالمغناطيس مصدرُه هو ، ومعناه هو ، ولا شىء فيه إلا هو

عرّفتنى لى شخصيتُه ظاهراً لأن جواب شخصيته فىّ ، وأصبح فى عينى كبيراً لأن جوابَ شخصيتى فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيده كلَّ يوم ظهوراً وتزيدنى كل يوم بَصراً ، وأعطاه حقَّه فى الكمال عندى حقّه فى الحب منى ؛ وبتلك الشخصية التى جوابها فى نفسى أصبح ضرورةً من ضرورات نفسى

* * *

قال الراوى :

ولما رأيتها فى جوّى نسيمه وعاصفته ، أردتها على قصّتها وشأنها ، فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(فى العدد القادم بقيتها)

مصطفى صادق الرافعى

(طنطا)

إلى الأديبة و . س بدمشق : أما بعد الشكر للأديبة الفاضلة فأنت فى الشكوى والموضوع يتعذر . . . . وسيأتى إليك كتابى الرافعى

افتتاح إفريقيـــة

وكيف غزاها الاستعمار الأوربى

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الايطالية الحبشية التى تكدر اليوم سلام العالم سوى نفثة جديدة من نفثات الاستعمار الغربى ، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزو أمة إفريقية ضعيفة تزخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التى مافتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب ، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة ؛ فهى ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف ، وإنما هى محاولة أوربية جديدة لاجتياح آخر أرض فى إفريقية استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الافريقية منذ قرن فقط ، منطقة بكراً ، لايكاد الغرب يعرف شيئاً إلا عن أممها الشمالية التى تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتى كانت تتمتع مدى الأحقاب بحضارات زاهرة ؛ وكانت هذه الأمم المتمدنة الزاهرة — مصر وبلاد المغرب — تكاد تحجب ماوراءها من أمم القارة السمراء ، وتكون دون اجتياحها سداً منيعاً يحميها من مطامع الاستعمار الغربى الذى استطاع منذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكتين ، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى ، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر فى الهند . ومنذ أواخر هذا القرن أيضاً توالت بعوث الاستعمار إلى إفريقية ، فنفذت اليها من الشرق والغرب والشمال ، وأثارت اكتشافات الرُّحَّل مثل منجو بارك ودنهام وكلابرتون ورنيه كاييه وستانلى ولفنجستون وغيرهم فى الأمم الأوربية مطامع وآمالاً جديدة ، وبعثت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية فى استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة ، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها فى سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أمم إفريقيـة الشمالية ، وهى مفتاح القارة ، بالطبع محط المشروعات والمحاولات الأولى ؛ وكانت اسبانيا أسبق الأمم